السنن الإلهية في النعم والنقم

= المتأمل المتدبر في نعم تعالى يرى:

أولاً: مصدر النعم جميعها هو الله:

وذلك قوله جل وعلا: {وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون} كل نعمة إن عرفنا أنها لله عرفنا أنه يجب علينا فيها حقاً لله خضوعاً واعترافاً وثناءاً وعملاً كما مر بنا، ولذلك إدراك هذه الحقيقة هو أيضا سنة وقاعدة ربانية ينبغي أن لا نغفل عنها، وربط هذه السنن بعمل الناس أمر مقرر دائم، كما في قوله فيما أسلفنا ذكره: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا} ومع ذلك فالله عز وجل يعفو عن بعض ذنوب الناس وآثار معاصيهم، دون أن يجعل لكل ذنب عقوبة.

ثانياً: أن نعم الله سبحانه وتعالى كثيرة.

قال تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار}
وقال تعالى: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم}.

ثالثاً: أن الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا إذا فقدها وحصلت له نقمة مقابلة لها.

ولذا يحرص الله تعالى على عرض النعم وفي مقابلها النقم، أو يذيلها بالتنويه على شكرها.

أ- الله تعالى كثيراً ما يعرض لنا النعم في صورة مقابلة لأضداها لنعرف قدر نعم الله تعالى علينا:

١- **ففي نعمة الإسلام والإيمان**: قال تعالى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء}

٢- **وفي نعمة الأخوة الإيمانية**: قال تعالى: {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً}،

٣- **وفي نعمة الأمن**: قال تعالى: { أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون}

ب- وقد يعرض الله تعالى للنعم مذيلاً الآيات بطلب الشكر عليها: قال تعالى: {وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذ استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون}.

= أسباب زوال النعم

أولا: معاداة أولياء الله سبحانه وتعالى وإلحاق الأذى بالصالحين واستجلاب سخط الله عز وجل بدعاء أهل الخير على من ظلموا وطغوا وبغوا وتجبروا.

حسبنا حديث النبي صلى الله عليه وسلم في أمر واحد ونموذج واحد.. فكيف بما هو أكثر من ذلك وأعظم، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن رب العزة والجلال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)، وليٍّ واحد فكيف إذا أوذي كل صاحب خير، وكل صاحب سمت صالح، فذلك من أعظم أسباب زوال النعم، وحصول نقم الله سبحانه وتعالى في هذه النعم وسلبها من أصحابها دون أن يشعروا بها.

ثانياً: ارتكاب المعاصي والذنوب

قال تعالى: {إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون}
قال تعالى: {ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين}
قال تعالى: {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم} وهذا مبدأ قرآني وسنة إلهية إنما يقع من بلاء وفتنة وحرمان هو من عند أنفسكم أي بسبب كسبكم، كما قال الله سبحانه وتعالى تأييداً لذلك: {وما أصابك من سيئة فمن نفسك} انظر إلى حالك مع الله عز وجل. .انظر إلى قلبك إخلاصاً وخوفاً

وخشيةً وتوكلاً وإنابة. انظر إلى أعمالك. .استقامة وبر وخير.. انظر إلى لسانك ذكراً، وتلاوة، وتعبداً.. انظر ماذا أخللت بهذا تجد أن الله عز وجل قد أوجد العقوبة المكافئة له.
وسنذكر أن هناك عقوبات كثيرة قد وقعت في حياتنا والناس عنها غافلون.
وكثيراً ما نرى في حياتنا أموراًً لا نفسرها بالتفسير الإيماني و القرآني الإسلامي الذي علمنا الله إياه في كتابه، وعلمنا إياه المصطفى صلى الله عليه وسلم في حديثه وسنته..
فالله سبحانه وتعالى يقول على سبيل المثال في بعض المعاصي والذنوب والكبائر: {يا أيها الذين اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين} ثم ماذا يقول سبحانه وتعالى: {فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله} فإذا كان ذنب واحد وكبيرة من الكبائر مؤذنة بأن يكون المجتمع محارب لله عز وجل.. فكيف - عياذاً بالله - إذا كثرت الجرائم والفواحش والذنوب والمعاصي؟
قال الله عز وجل: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}.

ثالثاً: نسبة النعمة إلى غير الله سبحانه وتعالى
وروى الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [قال الله عز وجل: إني والإنس والجن في نبأ عظيم؛ أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري].
وهذا أمر يشيع بين الناس كثيراً، فتجدهم يغفلون عن المنعم الحقيقي، ويذكرون بالثناء والحمد - بل بنوع من العبادة والذلة - خلوقين الذين ليس لهم حول ولا طول، فأنت ترى من باع دينه لدنيا غيره وأنت ترى من بدل دينه وبدل مبادئه لأجل دنيا يأخذها من هذا أو من ذاك، وأنت ترى من نعم أولئك أو هؤلاء أو أولئك وقد ذل لهم وخضع، وجعل لهم عرضه، وجعل لهم دينه وخلقه نهباً لهم كما يشاءون، وهذا كله ضريبة وحرمان ونقمة من الله لمن لم يكن بالشكر بالخضوع والاعتراف له سبحانه وتعالى، وقد قال ابن كثير في تفسير قول الله تعالى: {وبنعمة الله يكفرون} قال: أي يسترونها يضيفونها إلى غير الله عز وجل، ونحن نعلم القصة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح - الثلاثة النفر الأعمى والأبرص والأجذم - وما كان منهم من حال، وما بدّل الله لهم من نعمة وكيف جحد اثنان منهم النعمة ونسباها إلى غير الله سبحانه وتعالى.

رابعاً: الكبر والغرور والتعالي على الخلق
١- يقول تعالى عن الإنسان: {ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنه ولكن أكثرهم لا يعلمون. قد قالها الذين من قبله فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون. فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين. أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون}
٢- وكذلك قارون عندما قال: {إنما أوتيته على علم عندي}
٣- وقال تعالى: {ويل لكل همزة لمزة. الذي جمع مالا وعدده. يحسب أن ماله أخلده} اعتز بماله وقوته وجاهه وتكبر،
٤- وقال تعالى في شأن فرعون عندما قال: { ونادى فرعون في قومه قال يقوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون} وبلغ به الكبر والعتو حتى قال: {ما علمت لكم من إله غيري} فهذا من أعظم أسباب حصول النقم،
٥- نهى الله عز وجل عن الأسباب والمظاهر التي تؤدي إلى الكبر أو تدل عليه، كما قال سبحانه وتعالى: {ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا}
٦- فالكبر عواقبه وخيمة في الدنيا وكذلك هي وخيمة يوم القيامة: فعن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر).

خامساً: البطر والإسراف
وهذا نوع من عدم تقدير النعمة ق قدرها وعدم الشعور بأهميتها وقيمتها وفائدتها ونفعها، والله سبحانه وتعالى قد بين ذلك بياناً شافيا واضحاً في كتابه سبحانه وتعالى في قول الله جل وعلا: {وإذا أردنا أن نهلك

قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً} وكذلك بين الله سبحانه وتعالى ذلك في القرية التي بطرت معيشتها، وكانت مستحقة بعد ذلك لعذاب الله وسيأتي مزيد إيضاح في بعض هذه الصور.

سادساً: منع الحق الواجب في النعم

من مثل الزكاة وما افترض الله سبحانه وتعالى على الإنسان من الأعمال، فزكاة البدن الطاعة والعبادة من صلاة وحج وجهاد وزكاة المال الزكاة والإخراج منه كما أمر الله سبحانه وتعالى، وكل شيء فيه فرض واجب من منعه فقد استحق أو أوجد سبباً من أسباب زوال النعم.

روى ابن ماجه عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: [قْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ: خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ - عُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ -: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ].

سابعاً: ترك الشكر

قال تعالى: "وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد"

روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجاءة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك)، والإنسان د يتعرض لفعل يفعله، أو بقول يقوله لسخط الله عز وجل من حيث يدري ومن حيث لا يدري[1].

<u>وتبدو أهمية الشكر على النعم في:</u>

١- الشكر غاية:

١/١ قال تعالى: {ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون}

٢/١ وقال تعالى: {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون}

٣/١ وقال تعالى: {تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سرجاً وقمراً منيراً. وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً}

٢- الشكر وقاية: قال تعالى: {ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم} فالشاكرين معصومون بإذن الله قد أخذوا بأسباب الوقاية والحماية من الله سبحانه وتعالى.

٣- الشكر شمول واستمرار: يقول النبي صلى الله عليه وسلم:(إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها).

---

[1] نلحظ أمراً يحتاج إلى إيضاح وبيان، ويكثر فيه الاستفسار والسؤال.. ذلك أن كثيراً من الناس ينظرون إلى الشرق وإلى الغرب، يرون أهل الكفر وأهل المعصية، وقد أغدق الله عليهم النعم إغداقاً، وأفاض عليهم بركات السماء، وفجر لهم خيرات الأرض، فكأنهم يقولون: كيف بقيت هذه النعم لأولئك القوم، وهم ليسوا بمؤمنين ولا شاكرين؟ والجواب من أمرين مهمين:

أولاً: أن ذلك من عظيم سخط الله عليهم، وذلك هو الاستدراج الذي قال الله تعالى فيه: {سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، قال بعض السلف: (نسبغ عليهم النعم ونمنعهم الشكر)، يسبغ عليهم النعم ولا يوفقهم للشكر.. فماذا يكون؟! يكون الأمر استحقاق للعقوبة القاسية القاصمة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله:(إن الله يمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته). فذلك إمهال حتى يزيدوا في كفرهم وغيهم، ثم يستحقوا سخط الله عز وجل عليهم.. والله جل وعلا قد قال: {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه اليم شديد}، سنة الاستدراج تبدو في قوله تعالى: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء} نسوا الله عز وجل.. نسوا نعمته، نسوا شكره، نسوا عبادته.. فتحنا عليهم أبواب كل شيء، وهو تعبير قرآني يبيّن مدى النعم والخيرات التي يفيضها الله عز وجل، فتكون كأنها عمى على البصر بعد عمى البصيرة، فلا يكاد يبصر شيء من خلل كما يحصل على القلب الذي يضرب الله عليه ويطبع عليه، فلا يعرف حقاً ولا باطلاً، قال الله عز وجل: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. طع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين} وفي المقابل ينبغي أن ندرك أن الإيمان والطاعة هي أعظم سبب للنعم المادية والمعنوية حتى المادية وقد ذكرنا من قبل أن أمر أولئك الكافرين للاستدراج.

ثانيا: أن هؤلاء - وإن أوتوا النعم - فإن الله سبحانه وتعالى قد ابتلاهم بكثير من النقم، وكما قلت ليست النعم والنقم متعلقة بالأمور المادية! بل تعلقها بالأمور المعنوية أعظم وأكبر.. فأولئك القوم قد حرموا الأمن، وحرموا الأمان، وحرموا الأخوة والترابط، واضطربت نفوسهم، وذلت نفوسهم، وتحللت أخلاقهم، وشاعت بينهم الأمراض، وابتلوا بكثير من البلايا والرزايا، ولا يلتفت إليها كثير من الناس، ويخدعون بذلك البريق، وذلك الخير الذي يسوقه الله عز وجل لأولئك القوم.

ولذلك جاءت الأدعية الجامعة المانعة من النبي صلى الله عليه وسلم لتعيننا على أن نحسن شكر الله سبحانه وتعالى، وأن نقوم بالوصية التي أوصى بها معاذا للاستعانة على الشكر لما قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم:(يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك).
ومن ذلك الدعاء العظيم من النبي صلى الله عليه وسلم من أدعية الصباح والمساء: (اللهم ما أصبح بنا من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر)،
قال سبحانه وتعالى: {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون}
وجعل ذلك صفة لأعظم أو لبعض الأنبياء من أولي العزم من الرسل، فوصف بالشكر لإثنين من الأنبياء فقط إبراهيم الخليل لما قال الله سبحانه وتعالى في وصفه: {شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم}، وقال جل شأنه: {ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداًً شكوراً}.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم:(من أسدى إليكم فرأيتم أنكم لا تستطيعون أن تكافؤه بها، فقل له جزاك الله خيراً فقد أعظمت له الجزاء)،
وغاية الشيطان هو أن يخرج الناس من الشكر إلى الكفر، كما قال سبحانه وتعالى في وصف ذلك على وصف ولسان إبليس: {ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين}
روى ابن ماجة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على عائشة وكسرة خبز ملقاة، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم فنفضها وأكلها، وقال:(يا عائشة أحسني جوار نعم ربك لئلا تذهب عنك).
وعن الحسن: (اللهم لك الحمد بالإسلام، ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال، بسطت رزقنا، وأظهرت أمننا، وأحسنت معافاتنا.. فلك الحمد حمداً كثيراً كما تنعم كثيراً، أعطيت خيراً كثيراً، ووقيت شراً كثيراً، بوجهك الجليل الباقي الحمد ...) ومثل هذه الكلمات الجامعة تدل على فقه السلف لنعم الله تعالى، ولهجهم بالثناء على الله سبحانه وتعالى.

ثامناً: كفران النعم،

يقول تعالى: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار}، حلت بهم النكائب والمصائب، وحرموا النعم وحرموا قطر السماء، وتزلزلت الأرض من تحتهم، وتشققت من بين أرجلهم، وابتلعت قراهم، وحصلت لهم ما حصل وبعد ذلك: {جهنم يصلونها وبئس القرار}، نسأل الله عز وجل السلامة. فذلك الوعيد تنبيه إلى أن الأمر جار على السنة الإلهية التي لا تتخلف، وانظر إلى إيجاز بعض هذه السنن في شأن النعم والله عز وجل لا يخلف وعده ولا تتغير سننه مهما بلغ الأمر، ومهما تبدلت أحوال الناس، فالسنة جارية.
وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ} وذلك في شكل إطار جماعي عام.. النعمة لا تسلب من أمة إلا إذا كثرت فيها أسباب الكفران لهذه النعم، وتلك سنة جارية ماضية.

وأسباب كفران النعم:

أ- عدم الشعور بالنعم: ولذلك أسباب كدوامها وشمولها وعمومها، فأنت على سبيل المثال لا تشكر الله عز وجل على نعمة البصر أوى نعمة السمع أو على نعمة الذوق أو على نعمة الإحساس؛ لأن هذه نعمة موجودة دائمة عندك لم تقدّرها قدرها، ولم تشعر بأنها نعمة كأنها أمر حتمي لازم، ولو تأملت أثر النعمة من حيث فقدها، وتأملها عندما تنقص عندك بعض الشيء.. فتكون صحيحاً ويبتليك الله بمرض ثم تبرئ من تلك العلة أو غير ذلك من الأسباب.. يذكرك بهذه النعم، بل انظر إلى ما ذكر الله عز وجل من نعم عظيمة لا نفطن إليها، وقد ساقها الله سوقاً يبين أهميتها ونعمة الله على الناس فيها، فهذه الشمس التي تشع بها الدفء، ويكون بها الكثير من الخير من إنبات النبات، وتبخير الماء، ونزول المطر وغير ذلك.. لو حُرِمَ الناس هذه النعمة لكان موضع تدبر وتأمل، كما ذكر الله سبحانه وتعال {قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون}. والنعم التي ذكرتها أيضاً قد قال الله عز وجل عنها في قوله: {قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون} هذه نعم نغفل عنها لتكرارها.

ب- عدم النظر للمحرومين من النعم:

روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ].
نجد الناس كثيراً ما يكفرون بالنعمة.. تجدهم في أمن وأمان وعافية، وعندهم قوت يومهم وأسبوعه وشهره.. ومع ذلك يسخط على نعمة الله ويتبرم بالحال، وإذا سألته أنبأتك تجاعيد وجهه، ونظرات عينيه عن سخطه وجحوده وتبرّمه، ولو نظر إلى غيره لوجد من لا يجد مكاناً يأوي إليه ولا لباس يستر عورته، ولا لقمة تسد جوعته.. ممن يلتحف السماء ويفترش الأرض، فلا يجحدن أحد نعمة الله، فإذا كان ينظر دائماً إلى من فوقه.. إن كان صاحب شقة نظر إلى أصحاب الفلل، فقال: (إني محروم من النعمة)، وإن كان صاحب فيلا - كما نقول - نظر إلى أصحاب القصور فرأى أن الله عز وجل قد حرمه من نعمته، وهكذا لا يزال الإنسان ينظر.. وهذا يجعله يكفر النعمة ولا يشكرها، ولو أنه نظر إلى نعمة عافية بدنه لكانت ترجح بكل ما في هذه الدنيا من الأموال.

ج- الجهل بالله وأسمائه وصفاته: وذلك لغفلة العباد عندما ينسون معاني الإيمان، ولا تحيا في قلوبهم؛ فإن الإنسان إذا عرف أن الله عز وجل هو المعطي، وهو المانع، وهو المنتقم الجبار سبحانه وتعالى؛ فإنه يخشى حينئذ أن تنقلب النعمة، وإذا غفل عن هذه المعاني لم يكن عنده دافع أن يشكر النعمة، وأن يعبد الله سبحانه وتعالى، وأن يؤدي حق الله عز وجل في هذه النعم، والله سبحانه وتعالى قال في قصة قارون {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً}، هذا الذي يغفل هو الذي ينسى هذه النعم.

__أمثلة قرآنية لكفران النعمة وعاقبته:__
المثال الأول: {ليصرمنها مصبحين}
قصة أصحاب القرية وردت في سورة أصحاب الجنة في سورة القلم، مجرد أنهم كانت عندهم نية سيئة، قال تعالى: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون}، قالوا غدا نجني الثمار في أول النهار، وفي وقت الغلس حتى نأخذها ولا نعطيها من الفقراء أحداً، فكان بعد ذلك {فطاف عليها طائف من ربك وهو نائمون. فأصبحت كالصريم} وهذا الأمر نعمة من الله عز وجل لأولئك؛ فإنهم كانوا أبناء رجل صالح.. فأراد الله أن يعاقبهم ليتذكروا ويرجعوا، ولذلك كان منهم التلاوم وعرفوا ظلمهم لأنفسهم وتعديهم على شكر نعمة الله سبحانه وتعالى. ولكن انظر كيف كان ذلك من أثر النية والهمّ السيئ قبل الفعل.. ومع ذلك كان به حرمان النعمة وزوالها.

المثال الثاني: {رزقها رغداً}
قال تعالى: {وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}، وانظر إلى العقوبة وتصوير القرآن لباس لجوع والخوف اللباس هو أقرب شيء إليك، وألصق شيء بك، وأكثر شيء لا يفارقك، فكأن الله عز وجل قد ضرب عليهم هذا الجوع وهذا الخوف هذا كان في سائر مناحي حياتهم وأوجه نشاطهم في هذه الحياة، ولذلك قال: لباس الجوع والخوف الجوع والخوف أعظم النقم؛ لأنه ما قيمة أن تكون عندك أموال وأنت خائف على أموالك ليس عندك أمن! وما قيمة الأمن وأنت جائع لا تجد ما تسد به جوعك! تبيت ليلك وأنت تتضور من الجوع، فهاتان النعمتان من أعظم النعم، ولذلك كان دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام ماذا قال لما قال: {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون}. ولذلك أيضاً في دعاءه للبيت أن يكون هناك الأمن والرزق الذي يفرغ العبد لعبادة الله سبحانه وتعالى، وهذا المثل له ضرب مضروب لقرية ويتحقق في كل قرية كما نذكر في السنن الجامعة لمثل هذه المعاني.

المثال الثالث: {صاحب الجنة}
ومن هذه الأمثلة المضروبة قصة صاحب الجنة: {فدخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً} وهذا يبين لنا الأثر الذي قد يقع من هذه

النعم، عقوبة من الله عز وجل في هذه النعم وكثرتها قد تفضي بالإنسان إلى الكفر وإنكار المنعم وإنكار الساعة وجعل موازين غير وازين التي جعلها الله عز وجل، فهو يقول ولئن رددت إلى ربي لئن كانت هناك قيامة وآخرة؛ فإني وإن كنت أنعمت وأكرمت في هذه الدنيا فيكون كذلك في ذلك الوقت: {فقال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا} وليس في كلامه الأول كفر بأنه ينكر وجود الخالق كلا! ولكن هذا القول منه وجحود النعمة كان نه كفراً بالله سبحانه وتعالى.
ثم انظر إلى الأثر ماذا قال له هذا الصاحب وهو يحاوره: {فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك أو يرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقا} ماذا حصل؟ {وأحيط بثمره} هاتان كلمتان لخصت ما أنزله الله من نقمة فقط أحيط بثمره، ما معنى أحيط بثمره؟ يعني انتهى الأمر أحيط بثمره من عقاب الله وانتهى الأمر، وكأن شيئاً لم يكن من قبل، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها. ثم انظر كلمة {وأحيط بثمره} كيف كانت نتيجتها {وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً}.

المثال الرابع: {على علم عندي}

وقصة قارون مثل أيضاً قارون الذي وصف الله عز وجل الذي وصف الله عز وجل قال سبحانه وتعالى: {وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة} هذا قال {إنما أوتيته على علم عندي} {فخرج على قومه في زينته} فبهت الناس كما يبهت الناس بذلك النعيم والسلطان والجاه والخدم والحشم التي عند الكبراء والأثرياء والأقوياء، فخطفت تلك أبصارهم، فقالوا: {يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم} لكن أهل الإيمان وأهل الفقه الإيماني: {وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير} هذا النظر الذي يتجاوز الصور الظاهرة إلى الحقائق التي وراءها، ثم بإيجاز جاء القول: {فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين} لا عاصم اليوم من أمر الله ولا يستطيع أحد أن يرد قضاء الله ولا تقوى قوة على أن تمنع النقم التي يصيب الله بها من جحدوا نعمه، وكفروا بها وأعرضوا عنه سبحانه وتعالى.

المثال الخامس: {عن يمين وشمال}

وقصة سبأ أيضاً قصة فيها عبرة وعظة أيضاً، جاءت بفاءات التعقيب {لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال} ثم جاء فعلهم {فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور}.

المثال السادس: {كم تركوا}

وانظر أيضاً إلى ما قصّ الله عز وجل في قصة بني إسرائيل، وقصة فرعون وقومه عندما أحلّ الله عليهم به نقمته سبحانه وتعالى، جاء الوصف القرآني عجيباً مؤثراً بليغاً يهزّ القلوب هزّاً، ويؤثر في الوجدان تأثيراً عميقاً {كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين} في الأثر عن علي بن أبي طالب، كما قال ابن كثير: (إذا مات ابن آدم بكى له موضعان موضع سجوده في الأرض، ومصعد عمله في السماء)، أما الكافرون المعرضون الجاحدون لنعم الله فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين.

الخطبة الثانية

صور مخفية من النقم

أولاً: ضعف الإيمان واليقين بالله عز وجل

أعظم النعم هي نعمة الإيمان والإسلام كما أشرت، وأعظم النقم أن تصاب في هذه النعمة فإذا بك إيمانك ضعيف، وقلبك قاسي، وغفلتك قد استولت على نفسك وقلبك ومشاعرك.. وكأنك لم تعد ذلك المؤمن الذي يعرف القرآن، ويعرف السنة، ويتبع النبي صلى الله عليه وسلم! أفلا نرى في نفوسنا وفي نفوس الناس حولنا غفلة وانصراف عن آثار الإيمان، وعدم تحقق بمستلزماته.. هذه أكبر نقمة أن تنصرف أن يخلو قلبك مما يليق به ويلزم له من عظمة لخشية لله، ومن عظمة التأثر بآيات الله عز وجل.. حتى إن القلوب القاسية التي هي حظ كثير منّا إلا من رحم الله عز وجل، هو نوع من العقوبة التي فيها ضرب مثل ينبغي أن نتنبه له في قوله عز وجل: {لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله} فالجبل الأشمّ الأصمّ يتأثر.. فما بالك قلبك وأنت مسلم مؤمن مصليّ ساجد عابد تالي للقرآن، وليس هناك شيء، إذا هذه خطورة عظيمة أن الحياة إيمان، وأن نبض الإيمان، وأن أثر الإيمان ضاع في نفوسنا وضعف في حياتنا ولا شك أن هذا من أعظم النقم.

ثانياً: قلة العلم وندرة العلماء:

قد أخبر الله أن قلة العلم هو من صور ووقائع آخر الزمان، وكان السلف يقولون: (إن العبد ليحرم العلم بالذنب يصيبه)، يحرم العلم، بأن تحرم كيف يفتح عليك؟ كيف تفهم؟ كيف تفقه؟ كيف تحفظ؟ كيف تستنبط؟ كيف تستطيع أن تنزل المسائل على الوقائع؟ اليوم يأتي الناس بمسألتهم وفتواهم فلا يجدوا لها مجيباً، وإذا وجدوا ربما وجدوا من يجيبهم بجهل فيظلمهم فيكون هو ضالاً ويضلهم، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم:(يتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسألوا وأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) ألسنا نرى في مجتمعاتنا حيرة بسبب قلة علمنا ِعدم فقهنا وعدم حفظنا وعدم استنباطنا حتى كأننا لم نعد نعرف من ديننا إلا أقل القليل أو معلومات مما هو معلوم من الدين بالضرورة، أولم يعد كثير من أبناء المسلمين يعلمون من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قدر ما يعرفون من سير التافهين والتافهات من الفنانين والفنانات، بل حتى من سير الكفرة وأعداء هذا الدين هذا نوع من الحرمان والنقمة العظمى من الله سبحانه وتعالى.

ثالثاً: ضعف الاستقرار النفسي

كم ترى حيرة من الناس، واضطراب في النفوس، وجزع في الصدور، وهلع في القلوب، وحيرة وضرب في مشارق الأرض ومغاربها.. بعكس المؤمن، كما قال الله عز وجل: {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب}

رابعاً: شيوع المنكرات وسكوت أهل الحق عليها:

أصبح المنكر في المجتمعات الإسلامية معروفاً والمعروف منكراً، وانتشر الشعور بغربة الدين وغربة التزام المسلم بدنيه، حتى إن المسلم الذي يلتزم هدي النبي صلى الله عليه وسلم، ويحاول أن يتبع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يصبح غريباً شاذاً أصولياً متطرفاً إرهابياً إلى غير ذلك، ونحن نعلم أن النعمة تخص ولا تعم والنقمة تعمّ ولا تخص: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب} وسألت زينب النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال:(نعم إذا كثر الخبث)، وهذا أمر كثير وشائع بين الناس.

خامساً: عدم القناعة والرضا، والسخط على أقدار الله تعالى.

عدم القناعة أيضاً، نقمة من الله لأن الذي لا يقنع يجري ويلهث ثم لا يصيب شيئا إلا ما قدره الله له، فلا تجده قانعاً، ولا تجده راضياً بما قسمه الله له، وهذا نوع من الجزع والهلع والتعب والنصب في هذه الحياة الدنيا كله نقم من الله عز وجل وحرمان.

سادساً: سلب العافية

سلبت العافية اليوم بأمراض شتى، ما كنا نسمع بها من قبل كما ورد في الحديث:(إلا ابتلاهم الله بالأوجاع التي لم تكن في أسلافهم) كل هذه نقم، أتريد بعد أن تنزل النقمة على أم رأسك أو على من قام بالمنكر أو من قال كلمة كفر بعينه.. أفليست هذه كلها مصائب وبلايا؟!

فضلاً عن النقم الأخرى التي زرعت الشحناء في القلوب لا تكاد ترى فئة من الناس من المسلمين خمسة أو عشرة يداومون على نقاء ومحبة ومودة وصفاء وإخوة وقيام بحقوقها فترة من الزمن حتى تنفصم هذه عرى هذه الإخوة، وتشيع الشحناء والبغضاء، ويدبّ الحسد والحقد وغير ذلك من الأمور التي حرم الناس بركتها وخيرها.. بينما كانت في سلف الأمة هي التي كانت تظلل ذلك المجتمع بظلال الإسلام، فينعمون في هذه الحياة الدنيا نِعَم مادية ومعنوية، هي أعظم ما يمنّ الله به على عباده المؤمنين.

فلسنا نرى أيضا إنخرام الأمن وضياعه وضعفه وقلته في كثير من بلاد المسلمين إلا ما رحم الله، وكلما أحدث الناس حدثاً كلما سلبوا من نعمة الأمن شيئاً، حتى صار الناس في جزع وهلع وخوف وحرموا حتى استمتاعهم بنعمهم التي أفاضها الله عليهم من طعام وشراب وغيره، أفسلت ترى أصحاب الأموال وأحدهم لا يستطيع أن يأكل من الطعام إلا نوع أو نوعين؛ لأنه قد بلي بأمراض لا يستطيع بسببها أن يأكل ما يشتهي يجد الطعام بين عينيه والمال بين يديه ويسوق كل الخير بين يديه لكنه لا يستطيع، وترى كذلك صاحب المال والثراء وهو ينام متقلب على فراشه لا يغمض له جفن وهو خائف على ماله أو خائف على نفسه ممن يحسده أو يتربص به، فسدت الحياة وقلت خيراتها وذهبت بركاتها.

وقد ذكر ابن القيم رحمة الله عليه في كتابه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) نقماً لحصول الذنوب والمعاصي كثيرة، منها اختلال العقل، ونرى اليوم من اختلال العقل أموراً عجيبة من أفكار الناس واضطرابهم وإتيانهم بأمور لا تخطر على بال أحد وتفكير الناس بأقذر وأبشع الصور التي فيها انحراف عن الإنسانية والفطرة البشرية، بما لا يمكن أن يكون حتى من الحيوانات والبهائم كل ذلك نوع من النقم التي أبتلي بها المسلمون فضلاً من غير سلمين أي الكفرة الذين لم يؤمنوا بالله، ولم يدخلوا في دين الإسلام، فإذا هذه النقم ينبغي أن تكون نذيرا واعظا منبها إلى خطورتها أن تتضاعف، فتكون نقماً ماحقة ساحقة قاصمة.وأكثر من ذلك الخوف مما يترتب على ذلك في الآخرة نسأل الله عز وجل السلامة.